سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

شرح «كشف الشبهات»

الدرس العاشر

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

أخي طالب العلم إرسالك للأخطاء التي تتخلل التفريغ يسهِّل إخراج نسخة مصححة
attafreegh@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس العاشر

- فَإِنْ قَالَ: [إِنَّ] هَؤلاءِ الآيَاتِ نَزَلَتْ فِيمَنْ يَعْبُدُ الأَصْنَامَ، [وَنَحْنُ لا نَعْبُدُ الأَصْنَامَ]، كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالحِينَ مِثْلَ الأَصْنَامِ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟

فَجَاوِبْهُ بِمَا تَقَدَّمَ.

فَإِنَّهُ إِذا أَقَرَّ أَنَّ الكُفَّارَ يَشْهَدُونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ كُلِّها للهِ، وَأَنَّهُم مَا أَرَادُوا مِمَّا قَصَدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ فِعْلِهِمْ وَفِعْلِهِ بِمَا ذَكَرَ.

فَاذْكُرْ لَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الأَصْنَامَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الأَوْلِيَاءَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾[الإسراء:٥٧]، وَيَدْعُونَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦ ﴾[المائدة]، وَاذْكُرْ لَهُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١ ﴾[سبأ] وَقَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ ﴾[المائدة]، فَقُلْ لَهُ: عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ كَفَّرَ مَنْ قَصَدَ الأَصْنَامَ، وَكَفَّرَ أَيْضًا مَنْ قَصَدَ الصَّالِحِينَ وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، وأشهد أنّ محمدا عبد الله ورسوله هو النبي الأمين، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين.

أما بعد،

فأسأل اللهَ جل وعلا لي ولكَ العلم النافع والعمل الصالح والقلب الخاشع والدعاء المسموع، وأن يثبِّت العلم في قلوبنا، وأن يرزقنا البصيرة فيما نقول وفيما نعمل وفيما نترك.

ثم إنَّ هٰذه الرسالة العظيمة «**كشف الشُّبهات**» ساق فيها الإمام المجدد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ مقدِّمات قد مرَّ بيانها مفصلا، ثم ساق أصول شبه المشركين وأجاب بجواب مجمل، ثم بدأ في ذكر شبههم والجواب المفصل علىٰ ذلك، فذكرنا من ذلك ما ذكرنا، ووقفنا عند قوله رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (فَإِنْ قَالَ: [إِنَّ] هَؤلاءِ الآيَاتِ نَزَلَتْ فِيمَنْ يَعْبُدُ الأَصْنَامَ، [وَنَحْنُ لا نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالحِينَ مِثْلَ الأَصْنَامِ؟ أَمْ] كَيْفَ تَجْعَلُونُ الأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟

فَجِاوِبْهُ بِمَا تَقَدَّمَ.

فَإِنَّهُ إِذا أَقَرَّ أَنَّ الكُفَّارَ يَشْهَدُونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ كُلِّها للهِ، وَأَنَّهُم مَا أَرَادُوا مِمَّا قَصَدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ فِعْلِهِمْ وَفِعْلِهِ بِمَا ذَكَرَ.

فَاذْكُرْ لَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الأَصْنَامَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الأَوْلِيَاءَ) إلىٰ آخر ذلك مما سمعت.

هٰذه الشبهة راجت علىٰ كثيرين، حتىٰ إنّ المفسرين المتأخرين إذا ذكرت عبادة غير الله جل وعلا في القرآن من جهة النهي عنها أو وصف المشركين أنهم يعبدون غير الله فسروا ذلك بعبادة الأصنام، وقد تقرر في اللغة أنَّ الصنم صورة منحوتة؛ يعني ما نُحِت علىٰ شكل صورة، وإذا كان كذلك فإن الصنم إما أن يكون حجرا وإما أن يكون خشبا وإما أن يكون عجينا وإما أن يكون تمرًا إلىٰ آخر ذلك.

فعليه جعلوا العبادة التي توجه بها المشركون من العرب وغيرهم إلىٰ غير الله متوجَّهة إلىٰ الأصنام، ولهٰذا جعلوا كفّار قريش ما كفروا إلا بعبادتهم الأصنام، وكذلك الكفار فيمن قبلهم كفروا بعبادتهم الأصنام، وهٰذا أصل أصّله كثيرون في جملة من المنتسبين إلىٰ العلم في كتب التفسير وفي كتب العقائد المخالفة لعقائد أهل السنة وغيرها، وأصل هٰذا الباب وأصل هٰذا الضلال جاء -كما وصفتُ لكم فيما قبل- من جهة الباطنية ومن جهة المتكلمين.

فإنّ الباطنية لمّا قرروا أن التوسل بالأرواح؛ بل لما قرروا أنَّ الأرواح لها تصرف بعد مفارقتها للجسد أعظم مما كانت تفعل لما كانت في الجسد، قالوا: لأنها لما كانت في الجسد كانت محجوزة بهٰذا الجُثمان، لا تنطلق، لا تتصرف إلا بما يطيقه هٰذا الجثمان؛ فلا تعطي، ولا تمنع، ولا تأخذ، ولا ترفع، إلا بمقدرة الجثمان، فأما إذا انفصلت عن هٰذا الجثمان فإنها تعود إلىٰ انطلاقها، وتكون مهيأة لقوة أعظم

مما كانت عليه لمّا كانت في الجسد، فالجسد محل الشهوات ومحل العاهات ومحل الأمراض والروح مقيدة مسجونة فيه، فإذا فارقت الروح البدن انطلقت وصار لها من القوة ما ليس لها لما كانت مرتهنة بالجسد.

لما كان كذلك قالوا: إن التوسل بهٰذه القوىٰ وبهٰذه الأرواح والرَّغب إليها حتىٰ تتوسط عند الله جل وعلا، ليس هو مثل توسط المشركين؛ لأن المشركين توسَّطوا بأصنام والأصنام لا مكانة لها عند الله جل وعلا، وأما التوسط بالأرواح فإنّ الأرواح الطيبة الصالحة -أرواح الأنبياء والأولياء- هٰذه لها مكانها ولها مقامُها ولها جاهها وحرمتها عند الله جل وعلا، فجعلوا هٰذا الفرق لازما.

ولهٰذا جعلوا الوساطة هٰذه ليست داخلة في التوحيد، والتوحيد عندهم هو توحيد الربوبية دون توحيد الإلهية؛ يعني هو التوحيد بأن الله هو المتصرف القادر علىٰ الاختراع المستغني عما سواه المفتقر إليه كل ما عداه.

وراج هٰذا علىٰ المتكلمين، فكان المتكلِّمون يجعلون الغاية من تحقيق الإيمان هو الإيمان بالرُّبوبية؛ الإيمان بـ(لا إلٰه إلا الله) التي معناها أن لا ربّ إلا الله؛ يعني أن لا قادر علىٰ الاختراع والإبداع إلا الله جل وعلا وحده، فمتىٰ أقر بذلك كان مؤمنا وكان مسلما.

فعندهم أن مشركي العرب لم يكونوا علىٰ هٰذا الاعتقاد، وأنهم يعتقدون أن الأنواء تخلق، وأن الأصنام هٰذه تخلق وأنها تضر وأنها تنفع، وأمّا من وحّد الله في الربوبية فإنه يكون مؤمنا، لهٰذا قالوا: (لا إله إلا الله) معناها لا قادر علىٰ الاختراع والإبداع إلا الله، أو كما قال الآخر: لا مستغنيا عما سواه ولا مفتقرا إليه كل ما عداه إلا الله.

هٰذه الفكرة وهٰذا الانحراف راج في المسلمين ولما كان مذهب المتكلمين -مذهب الأشاعرة والمعتزلة- في التوحيد هو السائد، تأثر أكثر المفسرين وأكثر الفقهاء بهٰذا القول الخبيث، لهٰذا يفسِّرون الآيات التي فيها ذكر عبادة غير الله بأنها عبادة للأصنام.

ولهٰذا استنكر وأنكر طوائف علىٰ الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ دعوته، كيف تجعل الصالحين والأولياء مثل الأصنام؛ لأن الأصنام لا روح لها، والصالحون والأولياء أرواحهم مطهرة مقدسة عند الله جل وعلا.***

لهٰذا أورد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هٰذه الشبهة، وأورد الجواب عليها، فقال: (فَإِنْ قَالَ: [إِنَّ] هَؤُلاءِ الآيَاتِ نَزَلَتْ

فِيمَنْ يَعْبُدُ الأَصْنَامَ، [وَنَحْنُ لا نَعْبُدُ الأَصْنَامَ،] كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الأَصْنَامِ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟) قال: (فَجَاوِبْهُ بِمَا تَقَدَّمَ.

فَإِنَّهُ إِذا أَقَرَّ أَنَّ الكُفَّارَ يَشْهَدُونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ كُلِّها للهِ) إلىٰ آخر كلامه.

يعني بقوله: (فَجَاوِبْهُ بِمَا تَقَدَّمَ) ما قدمه في المقدمات فيما سبق، وقوله: (فَإِنَّهُ) هٰذا تفصيل لذلك الجواب، قال: (إِذا أَقَرَّ أَنَّ الكُفَّارَ يَشْهَدُونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ كُلِّها للهِ) فأوَّل إبطال لقولهم أن يقام عليه حال الكفار مع الربوبية [1] والله جل وعلا بيَّن لنا أنَّ أفراد توحيد الربوبية كان الكفار يقرون بها، فلما كان الكفار مقرّين بتوحيد الربوبية كان شِركهم جائيًا من جهة توحيد الإلهية، وقد بيَّن ذلك جل وعلا في آيات كثيرة كقوله جل وعلا: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الزخرف]، وكقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[لقمان:٢٥]، وكقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾[العنكبوت:٦٣] الآية، وكقوله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾[يونس:٣١] الآيات، والآيات التي في أول النمل، والآيات ذكرناها وهي كثيرة في بيان إقرار المشركين بالربوبية.

إذا كان كذلك؛ وأقر بهٰذا فإن جزءًا من شبهته قد زال، حتىٰ يعلم أنَّ شرك مشركي العرب لم يكن من جهة اعتقادهم أنّ هٰذه الأصنام تخلق أو قادرة علىٰ الاختراع أو لها نصيبٌ في الملك.

فإذا كان كذلك نقول: هم من هٰذه الجهة أرادوا من الأصنام هٰذه الشَّفاعة، كما قال جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[الزمر:٣]، وكقوله جل وعلا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[يونس:١٨]، وكقوله جل وعلا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص].

فإذن المشركون لهم اعتقاد في إلٰهية هٰذه الأصنام، ويرون أنَّهم إنما يتقرَّبون إليها لأجل التوسُّط لأجل الشفاعة، فهٰذا برهانٌ ثانٍ.

فالبرهان الأوَّل علىٰ هٰذه الشبهة: حال المشركين مع إقرار الرُّبوبية.

---

(١) انتهىٰ الشريط السابع.

والبرهان الثاني في الرد علىٰ هٰذه الشبهة: بيان أنهم مع الأصنام ما قصدوا إلَّا التوسُّط والشفاعة؛ لأن الله جل وعلا بيَّن لنا أنهم لا يعتقدون في الأصنام أنها تخلق وترزُق وتأتي بالمطر وتسيِّر الرِّياح إلىٰ آخر ذلك؛ بل إنما قصدوا منها الشَّفاعة واتِّخاذ الأصنام وسائط.

البرهان الثالث ما ذكره الشيخ بعد ذلك بقوله: (وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ فِعْلِهِمْ وَفِعْلِهِ بِمَا ذَكَرَ. فَاذْكُرْ لَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الأَصْنَامَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الأَوْلِياءَ).

كما أسلفنا أنَّ عبادة المشركين لغير الله كانت متجهة إلىٰ أربعة أنواع ذكرناها لكم فيما سلف، وتلخيصها:

- أنهم عبدوا الأصنام المصوَّرة.
- وعبدوا الملائكة.
- وعبدوا الأنبياء والأولياء.
- وعبدوا الأشجار والأحجار يعني اعتقدوا فيها وعبدوها.

فهٰذه جملة الأنواع.

ويدخل في الأشجار والأحجار: عبادة الشمس والقمر والكواكب؛ لأن لها نصيبا من كونها أحجارا.

ويدخل في عبادة النوع الثاني أصناف.

ويدخل في النوع الأول أصناف، إلىٰ آخره.

فإذن لم تكن عبادة العرب منصبّةً علىٰ نوع واحد.

إذا أراد الدليل فنقول له: من جهة أنّ العرب وغير العرب من المشركين والكفار عبدوا أنبياء وعبدوا صالحين فالآيات في هٰذا كثيرة كقوله جل وعلا: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾[المائدة:٧٥]، وكقوله جل وعلا: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾[سبأ]، وكقوله جل وعلا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾[الإسراء:٥٧]، وكقوله جل وعلا: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾[المائدة:١١٦]، وكقوله جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ

ٱللَّتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾[النجم]، علىٰ القراءة (**اللاتَّ والعُزَّىٰ**) وهو رجل صالح كان يلتُّ السويق، فمات فعكفوا علىٰ قبره، إلىٰ آخر ذلك.

إذن فنجمع لهم الآيات التي هي صريحة في أن الصَّالحين عُبدوا.

ثم الدرجة الثانية من هٰذا البرهان الثالث أن نقول في القرآن أيضا بيّن جلَّ وعلا أن الذين عبدهم المشركون كانوا أمواتًا غيرَ أحياء كما قال جل وعلا في سورة النحل في ذكر الحِجاج مع المشركين في وصف الآلهة: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾، فهٰذه الآية فيها بيان أنَّ الذين عَبَدَهم المشركون والكفار من العرب كانوا لا يَخلقون شيئا وهم يُخلقون، وأنَّهم أموات غير أحياء، ومعنىٰ قوله: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ﴾ أنهم الآن ليسوا علىٰ وصف الحياة؛ بل هم علىٰ وصف الموت وهٰذا يعني أنهم كانوا قبل هٰذا الوصف أحياءً؛ لأن الذي يوصف بأنه ميت هو من كان حيا، قال جل وعلا هنا: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ﴾، ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ يعني ما يشعرون متىٰ يُبعث، والذي يُبعث هو الميِّت الذي يوصف بأنه كان حيًّا فمات، وهٰذا واضح في خروج الجمادات والأصنام عنها، الذي يبعث ذووا النفوس: الجن والإنس والحيوان، وهنا معلوم أنَّ المقصود من عُبِدَ من الإنس.

فإذا كان كذلك بطل ادِّعاء أنّ العرب إنما عبدت أصنامًا لها وصف الحجارة فقط.

وقد ذكرنا لكم لِم تعلَّق العربُ ومن قبلهم بالأصنام؟ لأنهم يعتقدون أن هٰذا الصنم الذي هو مصوَّر علىٰ هيئة صورة ما تحلُّه روح أو كما يقولون: رَوْحَانِيّة تلك الصورة، فإذا كانت الصورة صورةَ بشر حلَّت فيه حين الخطاب، وإذا كانت الصورة صورة كوكب حلت فيه روحانية الكوكب حين الخطاب، وإذا كانت الصورة صورة ملك حضر الملك حين الخطاب، وهكذا، فيما يزعمون، وكل الذين يحضرون ويخاطبونهم، وهم صادقون حين يقولون: خاطبْنا الصنم فخاطبَنا وكلمناه فكلمنا وسألناه فأجابنا. ولكن لم تجبهم الأرواح الطيبة وإنما أجابتهم الأرواح الخبيثة؛ أرواح الشياطين والجن.

ولهٰذا قال جل وعلا في آية سبإ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾، يعني أن الحقيقة أن الذي خاطبهم وأوقعهم في هٰذا إنما هم شياطين الجن، وقد قال جل وعلا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ

أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس]، وكان إضلال الشيطان ليس من جهة الشهوات فحَسْب؛ بل هو في أعظم إضلال وهو في عبادة غير الله جل وعلا.

إذن جواب هٰذه الشبهة ترتَّب علىٰ ثلاث أنواع من البراهين مرتبة:

الأول: كما ذكرنا في أنَّ عبادة المشركين كانت في أنّ إقرار المشركين كان في الربوبية علىٰ وجه التفصيل وتسوق الآيات.

الثاني: أنهم ما أرادوا ممن عبدوهم ولو كانت الأصنام إلا التوسّط والشفاعة كما هي الآيات.

الثالث: أن الآيات فيها ذكر أن تلك المعبودات لم تكن أصناما فحسب؛ بل كانت تلك المعبودات من البشر والملائكة والجن يعني أنَّ غير الله جل وعلا عُبد بجميع أنواع غير الله؛ فعُبدت الملائكة وعُبد الصالحون وعُبد الأولياء وعبد الأنبياء.

إذا تبيّن ذلك واتّضح؛ فنأتي إلىٰ خاتمة هٰذا البرهان قبل أن نمشي مع كلام الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ فنقول: إن هٰذا البرهان وَرَدّ هٰذه الشبهة بما ذكرنا واضح؛ ولكن يبقىٰ نتيجته وهو فهم معنىٰ التوسط، وفهم معنىٰ التوسل، وفهم معنىٰ الشفاعة -وهٰذا سيأتي في جواب الشيخ أو في تكملة كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

لٰكِن المقدمة قبل هٰذا أنه إن سلّم بهٰذه البراهين الثلاث مرتبة تنتقل معه إلىٰ الكلام علىٰ الشفاعة، ولا تتكلم بالشفاعة قبل هٰذه البراهين؛ لأن الكلام في الشفاعة الشبه القولية فيه والعملية والنقلية كثيرة، فيحتاج إلىٰ محكم وإلىٰ واضح حتىٰ يُرجع إليه عند الاختلاف.

فإذن حين الحِجاج مع المشركين يقدم لهم إذا قالوا: إنّ الأولين ما عبدوا إلا الأصنام البراهين الثلاثة، ولا يُتكلم في الشفاعة إلا بعدها؛ ما معنىٰ الشفاعة وكيف توسلوهم ومعنىٰ التوسل وما شابه ذلك.

سؤال: هٰذا يسأل فيقول: ما الفرق بين درجتي البرهان الثالث؟

الجواب: قلنا:

الدرجة الأولىٰ في البرهان الثالث الآيات التي فيها ذكر عبادة الأنبياء والصالحين صراحة.

والدرجة الثانية منه كالاستحضار بأن قال: لا، هٰذا ليس بصحيح إنما عبدوا الأصنام عبدوا

هؤلاء، ما عبدوهم مباشرة، فيقال له: الله جل وعلا بيَّن أن الـذين دعـاهم المشـركون ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[النحل]، والآيات في أول الأحقاف أيضا واضحة في الدلالة علىٰ هٰذا.

فإذن الدرجة الثانية من البرهان لتبين أنهم ما عبدوا صور الصالحين أصنامًا فقـط، وإنمـا عبـدوا مـن كان حيًّا فمات ومن لا يشعر متىٰ يبعث، واضح؟.

- فَإِنْ قَالَ: الكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمُ [النَّفْعَ وَالضُّرَّ] وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللهَ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ المُدَبِّرُ لاَ أُرِيدُ إِلاَّ مِنْهُ، وَالصَّالِحُون لَيْسَ لَهُمْ مِن الأَمْرِ شَيْءٌ وَلَكِنْ أَقْصدُهُم أَرْجُو مِنَ اللهِ شَفَاعَتَهُم.

فَالجَوابُ: أَنَّ هٰذا قَوْلُ الكُفَّارِ سَوَاءً بِسَواءٍ، فَاقْرَأْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزُّمر:٣]، وَقَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

وَاعْلَمْ أَنَّ هٰذه الشُّبَهَ الثَّلاثَ هِيَ أَكْبَرُ مَا عِنْدَهُمْ، فَإِذا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ وَضَّحَها في كِتَابِهِ وَفَهِمْتَها فَهْمًا جَيِّدًا فَمَا بَعْدَها أَيْسَرُ مِنْهَا.

هٰذه الشبهة وأنهم ما قصدوا إلا الشفاعة تحتاج إلىٰ شيء من التقرير:

فإن المشركين وأشباه المشركين والمدافعين عن المشركين يقولون: إنّ الأسباب جعلها الله جل وعلا مُنتجة لمسبباتها؛ فجعل الأكسية سببا في دفع الحر وفي دفع البرد، وجعل القلم سببا للكتابة، وجعل الطعام سببًا لدفع الجوع، وجعل الشراب والماء سببًا لدفع الضمأ، إلىٰ آخر ذلك، وجعل بيتك سببا، وجعل العصا التي تحملها سببا، وجعل كذا وكذا سببًا.

قالوا: فكيف يُعقل أن تكون هٰذه الأسباب نافعة، والأنبياء والأولياء والصالحون بعد الموت لا ينفعون؟ فلا شك أنهم أعظم قدرا وسببيّتهم أعظم من هٰذه الأشياء، فكيف يقال أن الطعام ينفع والنبي ﷺ لا ينفع -كما يقولون-؟ وكيف يقال أن الأكسية تنفع والنبي ﷺ بعد مماته لا ينفع أو أن الأولياء والصالحين لا تنفع؟

فيدخلون لك في تقرير الشفاعة والتوسل من جهة الأسباب والارتباط بالمسبَّبات.

وجواب هٰذا يكون بمعرفة حال المشركين، فإن المشركين حين أشركوا ما أرادوا إلا أن يتخذوا هٰذه الأسباب مسبِّبات، حينما توجهوا إلىٰ عيسىٰ عليه السلام، وإلىٰ أمه، وإلىٰ اللاتّ، وإلىٰ الصالحين، وإلىٰ القبور، لِم توجَّهوا؟ هل يعتقدون فيها الاستقلالية؟ إنما اعتقدوها أسبابا.

فإذن شبهة السببية هي مقدمة شبهة الشفاعة، فإنهم يقرّرون السببية حتىٰ يصلوا منها إلىٰ أنه لا بأس أن تتشفع برسول الله ﷺ، أو تتشفع بالأولياء والصالحين.

فإذن فهمُك لعبادة المشركين يقضي علىٰ هٰذه الشبهة من أساسها، وتستطيع بفهمك لعبادة

المشركين أن ترد علىٰ من أتىٰ بهٰذه الشبهة التي هي مقدمة للقول بالشفاعة.

الأسباب كما هو معلوم في الشرع نوعان:

- أسبابٌ مأذون بها.
- وأسبابٌ محرّمة.

فليس كل سبب جائز في الشرع أن يُتعاطىٰ، وكوْن النبي ﷺ سببًا بعد موته أو كون الصالحين أسبابا بعد موتهم، هٰذا عند الجدال والبرهان نقول: هٰذا احتمال؛ احتمال أن يكونوا أسبابا واحتمال ألا يكونوا أسبابا؛ لأن السبر والتقسيم ومقتضىٰ الجدل الصحيح يقضي أن نقسِّم بأنه احتمال أن يكونوا كذلك واحتمال ألا يكونوا كذلك.

فننظر في حال الأولين فنقول: الله جل وعلا بيَّن لنا أن أرواح الشُّهداء عنده في مقام عظيم، وأنه لا يجوز لنا أن نقول: إن الشهيد ميِّت كما قال جل وعلا: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾[البقرة]، وقال جل وعلا في آية آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾، وأوَّلهم شهداء بدر وشهداء أحد، وهم كثير.

وفي زمن النبي ﷺ من السنة الثانية إلىٰ وفاته عليه الصلاة والسلام، ننظر في هٰذا السبب، هل كان شيءٌ من النبي عليه الصلاة والسلام أو فيما تنزّل من القرآن وجَّهنا إلىٰ الانتفاع بهٰذا السبب علىٰ فرض أنه سبب نافع.

فهٰذا باليقين لا يقول أحد: إنّ ثمة آية أو حديث أو سلوك للصحابة بأنهم توجهوا إلىٰ أرواح الشهداء -وهم أحياء بنصِّ القرآن- للانتفاع بهٰذا السبب، وحال الصالحين والأولياء الذين توجه لهم المشركون غير الأنبياء لاشك أنهم أقل حالا من هؤلاء الشهداء الذين شهد الله جل وعلا لهم بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون؛ لأن أولئك ما شاركوهم في وصف الشهادة، الأنبياء أعظم وأرفع درجة من الشهداء.

فإذا كان كذلك صار هٰذا إجماعًا قطعيًّا في زمن النبوة -وهو أعلىٰ أنواع الإجماع- أنَّ هٰذا السبب ولو فُرِض أنه يَنفع فإنهم تركوه قصدًا، ولم ينزل فيه شيء، فدلّ علىٰ أنه سببٌ غير نافع وأنه سببٌ غير

مأذون به، هٰذا من جهة.

والدرجة الثانية: أنه بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، وكونه عليه الصلاة والسلام مع الرَّفيق الأعلىٰ واضحًا كان هٰذا عند الصحابة، ومع ذلك لم يتوجه الصحابة ولا التابعون قطعا إلىٰ روح النبي عليه الصلاة والسلام يطلبون منها أو يجعلونها سببا، فهٰذا إجماعٌ ثانٍ توالت عليه أعصر.

والإجماع الثالث في حادثة نُقلت أن عمر ﷺ لما أصاب الناس في عام الرَّمادة سنة ١٧هـ، لما أصاب الناس الضِّيق والكرب والجفاف والجوع كان يستسقي كما في الحديث المعروف في البخاري وفي غيره، فلما خطب قال: إنا كنا نستسقي برسول الله ﷺ يعني في حياته، والآن نستسقي بعمِّ رسول الله ﷺ، يا عباس قم فادعُ. فقام العباس ودعا وأمَّن الناس علىٰ دعائه.

وهٰذا يدل دِلالة قطعية علىٰ أنهم انتفعوا بسبب دعاء العباس ولم يطلبوا الانتفاع بسبب دعاء النبي عليه الصلاة والسلام لعلمهم بأنّ ذلك السبب غير مشروع، وأنه من توجَّه إلىٰ النبي ﷺ طالبا منه أن يدعو أنه مخالف للشريعة وأنه شرك؛ لأنه لا يمكن أن يتوجهوا إلىٰ المفضول ويتركوا الفاضل، لا يمكن أن يتوجهوا إلىٰ الأقل ويتركوا الأعلىٰ وهو رسول الله ﷺ؛ بل هٰذا لو كان.....[1] لغير المصطفىٰ ﷺ، وهم في حياته كانوا يستغيثون به فيما يقدر عليه، ويستشفعون به فيما يقدر عَليه عليه الصلاة والسلام إلىٰ آخر ذلك، وهٰذا إجماع ثالث؛ لأن الحديث صحيح فيه.

إذا تقرر هٰذا؛ فنقول: هٰذا كله علىٰ فرض أنَّ السبب نافع ولكنه لم يؤذَن بالسبب، فقد تكون الخمر نافعة؛ لكن لم يؤذن بها، والله جل وعلا قال في الخمر والميسر: ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:٢١٩]، ومع ذلك حرَّمها، وقال عليه الصلاة والسلام: «**تداووا عباد الله ولا تتداووا بحرام**»، وقال: «**إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرّم عليها**» الحديث في أبي داود وفي غيره.

إذا تبيَّن ذلك فنقول: إذن علىٰ فرض أن هٰذا السبب ينفع فإنه سبب محرّم غير مأذون به في الشرع لتلك الأنواع الثلاثة من الاجماعات.

ثم ننتقل إلىٰ درجة ثانية من الحجاج معهم فنقول: في الحقيقة هٰذا السبب غير نافع في الدنيا. وهو ما تعلّقوا به من جهة الشفاعة أيضا نقول: تقرر أنّ هٰذا السبب غير مأذون به وأنه مردود في الشريعة؛ لأنه

---

(١) يوجد مسح في الشريط.

شرك المشركين. نقول الدرجة الثانية نقول هٰذا السبب في الحقيقة غير نافع، لم؟ نقول للآتي:

أولا: أنَّ الله جل وعلا بيّن أن روح عيسىٰ عليه السلام وروح أمّه لا تنفعهم ولا تضرهم بنص القرآن، فقال جل وعلا: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ ﴾ يعني عيسىٰ وأمّه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة]، فإذن في هاتين الآيتين من سورة المائدة والتي ساقها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في الأولىٰ بيان التوجه إلىٰ أرواح الأنبياء والصالحين؛ لأن عيسىٰ عليه السلام من أولي العزم من الرسل، ولأن أمه من عباد الله الصالحين ومن القانتات.

فتوجهوا إلىٰ روح نبيٍّ وإلىٰ روح أَمَة صالحة وأم نبي وأم أحد أولي العزم من الرسل.

بيَّن جل وعلا أن توجههم لتلك الأرواح تعلُّقٌ بسببٍ غير نافع، ما الدليل؟ قال: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ﴾[المائدة:٧٦]، وهٰذا يدلُّ علىٰ أن هٰذا السبب غير نافع.

وقال جل وعلا في الآية الأخرىٰ في سورة الجن في وصف النبي عليه الصلاة والسلام وفي الأمر له بأن يقول: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾[الجن]، بيَّن جل وعلا أنّ محمدا عليه الصلاة والسلام لا يملك لهم ضرا ولا رشدا إلا فيما جعله الله جل وعلا سببًا نافعًا في حياته وهو أعظم سبب نفع الناس وأعظم الأسباب النافعة في حياتهم حيث هداهم إلىٰ الإيمان وأنقضهم من الضلالة إلىٰ الهدىٰ وأخرجهم من الظلمات إلىٰ النور.

وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام السبب هٰذا الذي هو سبب الهداية وما أقدره الله عليه في الدنيا أصبح باطلا لأنه جل وعلا بيَّن أن الأنبياء والصالحين لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا لمن عبدوهم، وقد قال جل وعلا في أول سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾، اربطها بمن اتخذ ولدا من اعتقد أن لله جل وعلا ولدًا قال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾[الفرقان].

إذن فهٰذه كلّها تبيِّن أن هٰذه الأسباب غير نافعة، وإنَّما هي نافعة في حياتِها أو يوم القيامة تنفع؛ لأن الله جل وعلا جعلها أسبابا نافعة في هذين النوعين من الحياة.

هٰذا تدرُّج في البرهان، وإيضاحٌ فيما ذكره الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وهو الذي فتحَ هٰذه المعاني بما ذكر بعد توفيق الله جل وعلا.

قال: (فَإِنْ قَالَ: الكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمُ [النَّفْعَ وَالضُّرَّ] وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللهَ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ المُدَبِّرُ لاَ أُرِيدُ إِلاَّ مِنْهُ، وَالصَّالِحُون لَيْسَ لَهُمْ مِن الأَمْرِ شَيْءٌ وَلَكِنْ أَقْصدُهُم أَرْجُو مِنَ اللهِ شَفَاعَتَهُم.

فَالجَوابُ: أَنَّ هٰذا قَوْلُ الكُفَّارِ سَوَاءً بِسَواءٍ) لأنهم ما عبدوهم إلا ليشفعوا، ما توجّهوا إليهم إلّا للشفاعة، ما قصدوهم إلا لاعتقاد أنهم أسباب تنفع، الصَّنم سبب ينفع، والروح سبب ينفع، وروح النبي سبب ينفع والوثن والقبر سبب ينفع، والجني سبب ينفع فيما حرم الله جل وعلا، وهٰذا من الشرك الذي بينه الله جل وعلا في القرآن.

قال: (فَاقْرَأْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزُّمر:٣]، وَقَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨].)، ثم قال: (وَاعْلَمْ أَنَّ هٰذه الشُّبَهَ الثَّلاثَ هِيَ أَكْبَرُ مَا عِنْدَهُمْ، فَإِذا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ وَضَّحَها في كِتَابِهِ وَفَهِمْتَها فَهْمًا جَيِّدًا فَمَا بَعْدَها أَيْسَرُ مِنْهَا) فـرَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة كم كان بصيرا بشُبه المشركين وبالحجاج عنها في ذلك وبيان الصواب ووجه الحجة في وضبطها ودحضها، فكانت الشبه واضحة عند إمام الدعوة رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان فقه الكتاب والسنة والرد عليها أوضح وأبْيَن عنده، فشرح الله صدره لذلك، وإلا فإن كثيرين إذا جاءتهم الشُّبه وراجت عليهم فإنهم يتردَّدون؛ ولكن الله جل وعلا شرح صدره بالقيام بهٰذه الدعوة وبيان التوحيد فضلا من الله جل وعلا ونعمة.

إذن نقف عند هٰذا، وليكن لك مراجعة علىٰ المقدِّمات والشبه الثلاث والجواب عليها الجواب المجمل والمفصل؛ لأنَّ تأصيل ما ذكرنا وفهمه فهما جيِّدًا ينبني عليه ما سيأتي من ذكر الشبه والجواب عليها.

أسأل الله جل وعلا أن يرحم إمام الدَّعوة، وأن يرفعه في عليِّين، وأن يجعله مع الأنبياء والصديقين والصالحين والشهداء وحَسُنَ أولئك رفيقا.

اللّٰهمَّ أجزهم عنا أحسن الجزاء علىٰ ما أوضحوا وبينوا وجاهدوا في الله حق الجهاد.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.